جزءاً من عملية غزو واسعة. فالجنوب الاميركي مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الاهلية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفدرالية على حساب استقلال الولايات. وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠ ألف شخص حياتهم ابّان هذه الحرب. وبعد انتصار الشمال، تمّ فتح الولايات الجنوبية للرأسمال الشمالي، وللنخبة الشمالية التي أسّست الصناعات وغزت السوق. ورأى بعض المؤرخين ان العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية، وان ما سمّاه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة الاميركية هو، في واقع الامر، غزو شمالي للجنوب وهيمنة عليه. وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه اقطاعية، توجد على قمّته ارستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة، وبقيَم الشرف، وبالالتزام الاقطاعي. وكان مجتمعاً انجلو ـ ساكسونياً بروتستانتياً متجانساً، لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الاميركية، خاصة على الساحل الشرقي. وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في مجتمع الجنوب، وتتّسم بقدر كبير من التماسك. وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الأسري. ولذا كانت محط تقديس المجتمع. وأعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الارستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبغض، الى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوكهم في محلها. اذ انه بعد «توحيد» الشمال مع الجنوب فتح الجنوب للصناعات الشمالية، التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والسوق البكر. وهي صناعات لم تخدم كثيراً تقاليد المجتمع، وساهمت في تفكيك نسيجه المجتمعي، وفي تحطيم بنية الأسرة. فكان الاطفال يعملون في المصانع لساعات طويلة، وكذلك النساء. وقد أدّى دخول الصناعات الى تزايد معدّلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبعها من تفكك اجتماعي، على الأقل في المراحل الاولى، خاصة وان هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطوّر عضوي وتفاعل عناصر محلية وظهور بورجوازية في رحم المجتمع ذاته، وانما فرضت عليه فرضاً من مجتمع اليانكي الشمالي.

كان ليو فرانك رمزاً لهذه القوة الغازية. فهو شمالي، كان في الجنوب صاحب ومدير مصنع في مجتمع زراعي ينظر بعين الشك الى الصناعة. يقوم باستئجار النساء والاطفال كعمالة رخيصة في مجتع كان يقدّس الأسرة حتى عهد قريب. وكان يتمّ الاشارة الى ماري فيغان على انها «عاملة المصنع الصغيرة»، أي انها تحوّلت الى رمز الطفولة البريئة التي استغلّها المستثمرون من الشمال. وهو كان خريجاً جامعياً وعضواً في النخبة العلمانية المهيمنة، التي لا تكترث كثيراً بالقيَم التقليدية، في وسط بيئة جنوبية عمّالية مقتلعة من بيئتها الزراعية، لا تزال تؤمن بالقيَم التقليدية والمسيحية (البروتستانتية) تحلم بالمجتمع المتماسك الذي دُمّر ابّان الحرب الأهلية. ولم تكن يهودية فرانك سوى بلورة لكل هذه العناصر السابقة؛ اذ ان المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعي الغازي والجنوب الزراعي الذي تمّ غزوه؛ بين ضحايا التقدّم والصناعة، من جهة، وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيب، من جهة أخرى.

ولعله يكون من المفيد ان نتوقف، عند هذه النقطة، عند انتماء فرانك اليهودي. فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بني بريت اليهودية في المدينة. ولا بدّ من ان نعرف كذلك، على وجه الدقّة، موقف الجنوب الاميركي من اليهود. وقد حدّد الجنوب الاميركي التضامن على أساس عرقي: أبيض في مقابل أسود؛ على عكس الشمال الذي عرّفه على أساس عرقي، أو اثني ديني: بروتستاني ابيض انجلو ـ ساكسوني في مقابل كاثوليكي ابيض من أصل ايطالي أو ايرلندي، أو كاثوليكي اسباني، او كاثوليكي او بروتستانتي أسود؛ وكل هذا في مقابل يهودي بطبيعة الحال (وبالتالي يكون